

## تحولات فلسفة المراقبة من (مجتمع الانضباط) عند ميشيل فوكو إلى (مجتمع التحكم) عند زيجمونت باومان

أ . م . د. علاء كاظم مسعود

جامعة واسط / كلية الآداب / قسم الفلسفة

فوكو و زيجمونت باومان) فإذا اتصف الأول بالحدثة الصلبة اتصف الأخير بالمرونة، ضمن فلسفته السائلة، واختلاف معايير القوة التي تكمن في السرعة والتحول وعدم الثبات، وهذا ما نتج عن التحول الرقمي، وهو بطبيعته يحدد نوع المراقبة ومعرفة أبعادها، وتأثيرها المعاصر على المستوى التكنولوجي والاجتماعي معاً، فضلاً عن السياسي. فهناك الدولة والسلطة هي من تراقب، بينما هنا تكون المراقبة تبادلية بين الأفراد من خلال صفحاتهم، وكذلك الشركات من خلال الخوارزميات لتحديد نوع الاستهلاك وانماطه.

كلمات مفتاحية: المراقبة، العقاب، فلسفة الحدثة، الجسد، السيولة، الأمن.

### Transformations in the Philosophy of Surveillance: From Michel Foucault's Disciplinary Society to Zygmunt Bauman's Control Society

الملخص.

اهتم فلاسفة القرن العشرين وعلماء الاجتماع في تحديد سلوك الانسان الذي ينبثق من المعايير والضوابط التي تضعها السلطة، مما يبين عمق العلاقة بين المعرفة والسياسة، إذ تلعب الفلسفة دوراً رئيساً في تحليل وفهم المبادئ التي تشرع هذه القوانين، ومعرفة النظريات التي يمكن من خلالها تحسين سلوك الافراد. فتظهر المراقبة وظيفة من وظائف السلطة لتحديد ذلك السلوك، والتي شغلت فوكو كثيراً، في اعماله الفلسفية وأهمها (المراقبة والمعاقبة) إلا أن ما يمكن قوله إن المراقبة عنده بقيت في إطار الحدثة الصلبة في السجن والمدرسة والمستشفى، على الرغم من وجود قوى خفية تقودها السلطة من خلال قواعدها الانضباطية، ليس للعقاب فحسب بل للانضباط كذلك؛ فمجرد أن يعرف الإنسان أنه مراقب سوف يرتقي بسلوكه، إلا أن الاختلاف مع باومان في طبيعة المراقبة التي تخضع إلى حدثة كل منها (ميشيل

his liquid philosophy. In Bauman's framework, the criteria of power shift toward speed, transformation, and instability, byproducts of the digital revolution. This digital shift dictates the nature of contemporary surveillance, shaping its technological, social, and political dimensions. Whereas Foucault's model posits the State and central authority as the observers, Bauman's model describes a mutual or synoptic surveillance among individuals via social media, as well as by corporations using algorithms to track and define consumption patterns.

**Keywords:** Surveillance, Punishment, Philosophy of Modernity, The Body, Liquidity, Security.

#### المقدمة.

لم تعد السيطرة كافية في إعادة إنتاج الإنسان، أو العمل على تغيير وعيه، بل الهيمنة تكفلت بتلك المهمة في الانتقال من لغة القوة أو منطق القوة إلى قوة المنطق والمعرفة، وذلك بعد الخروج من مجتمع السيطرة الذي عمل فوكو على تفكيكه؛ فعملية انتقال الفرد من الأسرة إلى المدرسة إلى المجتمع أو الثكنة العسكرية أو المستشفى لم تعد كافية، بل انتقلت إلى التحكم بالمجتمع. وهنا يختلف معنى المراقبة، وتحديدًا في الجانب الجسدي (أي مراقبة تحركات الجسد)، إلى معنى المراقبة

#### Abstract

Twentieth-century philosophers and sociologists have focused extensively on defining human behavior as it emerges from the norms and regulations established by power. This focus reveals the profound relationship between knowledge and politics, wherein philosophy plays a primary role in analyzing the principles that legitimize these laws and identifying theories through which individual conduct can be refined. Surveillance emerges as a core function of power used to define such behavior, a theme that occupied Michel Foucault throughout his philosophical works, most notably in *Discipline and Punish*. However, it can be argued that Foucault's conception of surveillance remained confined within the framework of solid modernity, manifested in the prison, the school, and the hospital. In these spaces, power operates through disciplinary rules driven by hidden forces, aiming not merely for punishment but for discipline; the mere knowledge of being watched compels the individual to self-regulate.

The distinction arises with Zygmunt Bauman regarding the nature of surveillance, as each philosopher's view is rooted in a different stage of modernity. While Foucault is characterized by solid modernity, Bauman is defined by flexibility within

ويستعين بالعلم في تأسيس نظام مثالي، فكانت المراقبة تشير إلى سيطرة الإنسان وإلى إدارته للأمر بما يحقق النظام والانضباط والانسجام والكمال النهائي والوضوح التام الذي لا يعرف الغموض ولا الإبهام ولا الالتباس" (باومان وليون، ٢٠١٧، ص٧). وهذا ما يحدد نوع المراقبة، سواء أكانت انضباطية أم عقابية.

فالإشكالية التي قامت من أجلها الدراسة هي : كيف يمكن لهذه القواعد، أو ما جاءت به الفلسفة من أفكار ونظريات وضوابط خُلقيّة، بدلاً من أن نجعلها وسائل للفهم، أن تكون وسائل للضبط بيد السلطة؟ وكما خضع العلم لما أنتجه من وسائل وآلات، فبدلاً من أن تكون بخدمته، تكون للسيطرة عليه. والفلسفة كذلك من خلال ما جاءت به من تفكيك الخطاب السلطوي الذي وظف كل شيء لخدمته؛ فالسلطة حولت الإنسان إلى آلة مطيعة من خلال ضوابطها. وإن بدأ فوكو بإشارة بسيطة في تحولات المراقبة إلى أشكال أكثر تقنية، إلا أننا مع باومان نجد تحليلاً كاملاً ليس فقط في كتابه "المراقبة السائلة"، بل في كل فلسفته السائلة؛ إذ أثارت التقنية مخاوف الإنسان بدلاً من أن تبتد خوفه إزاء الاختراعات التي انتهكت خصوصية الإنسان، وبدلاً من أن تبقى قضية الأمن بيد الدولة، أصبحت مسؤولية الفرد.

الإلكترونية من خلال البيانات الشخصية في برامج التواصل الإلكتروني وأهمية الخوارزميات فيها. وهنا المهمة تعقدت بتطور العلم وتوسع المختصين في هذا المجال؛ لذلك سوف ننتقل في الفلسفة المعاصرة بين ميشيل فوكو في مجتمع الانضباط، الذي ينظر للمراقبة بأنها عملية توجيه من خلال اللغة والإعلام، وصولاً إلى زيجمونت باومان في مجتمع التحكم. تعقب ذلك الانتقال وجود أيديولوجيات ومدارس فكرية ساعدت على هذا التغيير، من العولة والليبرالية الجديدة وانفتاح السوق الحر بين الدول.

إن المراقبة عند باومان هي امتداد لفلسفته في الحداثة السائلة، التي تكمن فيها التقاء صفات التحديث، وهي بمعنى إذابة الثوابت أو المرتكزات، وإن اقترنت مع السيولة أدت نفس المعنى، مما أثر على موازين القوى في الفصل بين السلطة والسياسة، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون؛ بين ضعف القوة الفاعلة وقوتها في التحكم سواء من قرب أو من بعد، وما يصاحب هذا الفصل من غياب القوة الفاعلة أو ضعفها. ولكن التساؤل: كيف انتقلت وظيفة المراقبة من صفتها الإلهية إلى صفة إنسانية؟ علماً أن الإجابة تبدأ من عصر التنوير؛ "جرى علمنة فكرة الإله الرقيب، وأصبح الإنسان الحديث هو الرقيب الذي لا بد أن يخضع العالم لسلطته ونظامه، ويحقق الانضباط والامتثال،

## المبحث الاول. فلسفة المراقبة عند ميشيل فوكو.

## أولاً: - ماهية المراقبة.

بنثام، والغاية منه أن المراقب بإمكانه مراقبة جميع السجناء دون معرفتهم، ووصفها بأنها طريقة جديدة في "سيطرة العقل على العقل". فيما بعد أصبحت هذه الفكرة أرضاً خصبة للعديد من الفلاسفة، ولا سيما فوكو وتشومسكي وكذلك باومان (ويكيبيديا: ٢٠٢٥)، كما سوف نلاحظه مع فوكو.

يضاف إلى ذلك أن مراقبة فوكو تبدو فيها فكرة "البانوبتيكون" فكرة عبقرية؛ فهي على أحد المستويات نظرية حول آلية المراقبة، وهي على مستوى آخر وسيلة لوضع المراقبة داخل قصة الحدائث التي وظفتها السلطة في السيطرة على الأفراد - الأجساد. ومن خلال منظور فوكو - الذي اهتم بما جاء به بنثام في تصميمه - باعتبار البانوبتيكون مفتاحاً لفهم نشأة المجتمعات الحديثة الساعية إلى الانضباط الذاتي (باومان، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ٦٩)، وانطلاقاً من معنى البانوبتيكون، يجادل فوكو لصالح أهمية "إمكانية الظهور الدائم" بوصفه ميلاداً عاماً لممارسة السيطرة على الجسد أو لتنسيق أجساد فردية مع سواها؛ فالسجن يمثل حالة متميزة لموقع منظم لعنيين من الانضباط.

بيد أن دور العقل في السلطة والسياسة والمراقبة لا يعني محاكمته أو تبرئته أو إدانته، كما لا يعني فحص المسار العام للعقلانية المنحدر من عصر الأنوار على

تختلف معاني الانضباط وفق الدلالة المتبغاة من المعنى، وحسب رؤية الفيلسوف لها؛ سواء كان الغاية من المراقبة هو انضباط الفرد ومعالجة السلوكيات المنحرفة، أو كانت مراقبة حالة معينة هي محاولة اكتشاف جديدة تغيير مسار التجربة إذا ما ذهبنا في اقتران المراقبة مع التعلم. "فكرة الانضباط تقترن بالتدريس والتعلم مسألة أساسية، فهو مشتق من الكلمة اللاتينية (disciplina) بمعنى تعليم الطلبة أو التلاميذ (فكلمة disciplina اللاتينية تعني: التلميذ). وحتى بواكير القرن السابع عشر كان الانضباط يستعمل بمعنى التعليم أو التدريس... ومنذ القرن الخامس عشر صار الانضباط يقترن بسلوك معين وفعل مناسب ومران عقلي وأخلاقي، توجزه الدعوى بأن المقصود من الحياة الحاضرة أن تكون حالة انضباط لحياة مستقبلية" (موريس، ٢٠١٠، ص ١٢٦).

لا بد أن نعرف المراقبة، وكثيراً ما استعمل مصطلح "بانوبتيكون: (Panopticon)" المتكون من مقطعين؛ (-opticon) تعني مراقبة، و (pan-) تعني الكل، وهو نوع من السجون قام بتصميمه جيريمي

إن الغاية من هذا التعليم هو خضوع الأفراد وتنميطهم عقلياً، ولعل أول من أسس ذلك هو إيمانويل كانت في فلسفته النقدية، من خلال مقولاته الكلية التي القصد منها توحيد الأفعال وفقاً لنمط عقلي موحد، الغاية منه هو الانضباط والتحكم بالأفراد. ودائماً ما يستغل هذا التنميط من قبل السلطة لتمير مشاريعها من دون اعتراضات؛ إذ يسمح الانضباط ببلوغ التنميط العقلاني للطاعة لدى العديد من الأفراد، والوصول من خلال ذلك إلى تجانس الفعل والسلوك الخاضع للأوامر.

يحلل فوكو دور الدولة الحديثة من خلال أجهزتها المختصة في عملية مراقبة السكان، مقارناً بذلك بين إدارة السجن وإدارة الدولة. أشارت المراقبة - أو مفهوم المراقبة - أثراً فلسفياً اجتماعياً؛ إذ يركز فوكو على الانضباط، ولا سيما بعد الثورة الفرنسية ودخول الإصلاحات الدستورية والقانونية؛ إذ من خلالها دخل المجتمع في شبكية الانضباط المعقلن لكل مؤسساته ونشاطاته، ولا بد من الوقوف على هذه الشبكة.

وهي الشبكية المعبر عنها "أركيولوجياً": المستوى المادي الدقيق لتوسيع الانضباط في الفعاليات. ذلك الانضباط الذي يشمل الهيمنة بما فيها السيطرة والرقابة على الفعالية اعتباراً من الجسد الفردي إلى الجسد الاجتماعي. فالمجتمع الانضباطي ليس مجرد

طريقة مدرسة فرانكفورت التي ينوه بها فوكو، بل يعني في نظر فوكو اكتشاف أي نوع من العقلانية احتفظ به المجتمع الغربي الحديث، من خلال تحليل مسارات مجالاته المختلفة التي يتناسب كل منها مع تجربة إنسانية كالحق والجنس والمرض والجريمة. ولن يتأتى هذا الاكتشاف إلا بالحفر في الماضي عن أشكال العلاقة بين العقل والسياسة، حفرًا وفق منهج فوكو الجينالوجي (حيمر، ٢٠٠٨، ص ٣١٠).

### ثانياً: - المراقبة: رؤية فلسفية تاريخية

العلاقة بين الانضباط والسلطة لم تجسد مع فوكو فحسب، بل كذلك مع علماء اجتماع وفلاسفة مثل ماكس فيبر، الذي خصص فصلاً كاملاً من كتابه "الاقتصاد والمجتمع" عن هذه العلاقة تحت عنوان "تطور الانضباط وتشبؤ أشكال السيطرة"، كما سنجدده عند فوكو بالتنميط العقلاني؛ "يصوغ فيبر مفهوم الانضباط بمعارضته مع فكرة حرية الفعل الفردي... في الانضباط العقلاني هذا ما يسمح بتنفيذ الأمر المعطى بطريقة دقيقة ومن دون أي نقد شخصي، ويعود ذلك إلى الاستعداد الآلي الذي يتأتى من استبطانه بواسطة تمارين طويلة من خلال التعلم الصارم" (سنتومير، ٢٠٢٣، ص ٣٢).

تصوير "البانوبتيكون" أو السجن الذي يمكن فيه مراقبة الجميع عند جيرمي بنتام باعتباره الصورة المجازية الأصلية للسلطة الحديثة. ففي البانوبتيكون، يتقيد النزلاء بالمكان ويمنعون من أشكال الحركة كافة، محبوسين بين جدران سميكة غليظة شديدة الحراسة، في أسرّتهم أو مقاعد عملهم؛ فلا يمكنهم أن يتحركوا لأنهم مُراقَبون، وهم مضطرون إلى التزام أماكنهم المحددة في الأوقات كافة لأنهم لا يعلمون - ولا سبيل لهم إلى أن يعلموا - أين حراسهم في هذه اللحظة، هؤلاء الحراس الذين ينعمون بحرية الحركة كما يشاؤون (باومان، ٢٠١٦، ص ٥١). فالصح والمستشفى والسجن والمشغل (المصنع فيما بعد) والثكنة والمدرسة، هي مؤسسات بانوبتيكية لتمفصل الملفوظي والمرئي معاً، لإنتاج الانضباط حصراً بين جدران هذه المؤسسات، ولكن بنأ وإشعاعاً وامتداداً إلى جميع سطوح ومفاصل وإرهاصات المجتمع" (فوكو، ١٩٩٠، ص ٤٢). وهذا ما يميز المراقبة عند فوكو بأنها ثابتة بالمكان والزمان، بل إن قوتها في ثباتها.

ليس الغاية أو القصد من بيان المراقبة بوصفها ممارسة سلطوية أن نبين وظيفة السلطة أو مهامها، بقدر ما نريد أن نعرف فلسفة المراقبة، وأن السلطة ليست "ملكية" بل هي "إجراء"، ومن ثمّ هي ليست محل أُرصاد لكنها هي من ترصد وتبين وتحلل المراقَب. وفي

تفريغ لشبكيات من السلطة تننزل كلها من السلطة العليا الحاكمة أي الدولة، بل هو يقوم على مبدأ تنويع السلطات، وليس تفريغ سلطة واحدة. ويكشف فوكو مثلاً في سلطة البوليس أنها بالرغم من أنها تمثل جهاز الرقابة والضبط المباشر للدولة (فوكو، ١٩٩٠، ص ٣٥)، إلا أن هذه الرقابة للسلطة قد تكون خارج نطاق الدولة؛ "نموذج السلطة الذي تمارسه هذه المؤسسة، والميكانيزمات التي تستخدمها والعناصر التي تطبقها إنما هي خاصة... يستنتج أن السجن بالأحرى ليس مصدره القانون الجنائي، بل هو سبق القانون، وجاء هذا فيما بعد لينظمه. إن للسجن مؤسسته الخاصة، وطريقة نشوئه وهيكلته المتعلقة به وحده، كما لو كان سلطة مضافة إلى الدولة أو المجتمع" (فوكو، ١٩٩٠، ص ٣٥).

إذ يحاول عبر "جداول بانوبسية" أو "بانوبتيكية" حسب مفهوم البانوبتيكون-panopticon: التي هي (جداول انضباط) تعيين وتصنيف القواعد العامة وشروط الاشتغال والتقنيات والإجراءات والعمليات المتميزة والآليات والمبادئ والعناصر التي تتركب (مايكروفيزياء السلطة) (سارتو، ٢٠١١، ص ١٠٨)، الغاية منها تحسين سلوك الفرد سواء كان السجين أو المجنون حسب سلسلة فوكو في كتبه: "المراقبة والمعاقبة" و"تاريخ الجنون". فاستخدم

وحياة السكان" (فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ٢٠٠٣، ص ٦-٧).

إن السيادة والانضباط، والقانون والسيادة، والآليات الانضباطية، هي قطع مُشكّلة للآليات العامة للسلطة في المجتمع. فلنقل إنه من أجل النضال ضد الانضباطات، أو بشكل أفضل ضد السلطة الانضباطية بحثاً عن سلطة (غير انضباطية، إلى أين يمكن أن نلجأ غير الذهاب إلى القانون القديم للسيادة؟ قانون جديد، مناهض للانضباط ومنعتق في الوقت نفسه من مبدأ السيادة (فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ٢٠٠٣، ص ٦٢).

اتخذت المراقبة عند فوكو موضعة الجسد؛ "جسد الإنسان المكان الوحيد الذي تتقاطع فيه وحوله علومه وممارساته كلها" (فوكو، ١٩٩٠، ص ٣٤). وهنا لا ينفصل الجسد عن السلطة والمعرفة، أي شبكيات الانضباط المعقلن؛ فالجسد يكاد يكون مرتكز السلطة وتحولاتها في السيطرة عليه وتقنيته وقولته، ليس فقط بالقوة بل بالتكنولوجيا كما سنلاحظ: "الجسد هو موضع ونقطة تكور لمتناقضات السلطة في كافة مراحل تحولاتها، إنه بؤرة تعكس قوتها وجبروتها وقسوتها؛ فمرة يتحول الجسد إلى تعبير وشكل من أشكالها كما في الجندي ورجل الشرطة والأمن، وأخرى يتحول إلى

هذا، يكون التركيز على الجسد ومدى الممارسات الانضباطية في إنتاج "الأجسام الطيعة".

ثانياً: - المراقبة الجسدية .

الجسد والسلطة؛ كثيراً ما عمل فوكو على تحليل العلاقة بينهما، فالجسد هو محطة السلطة ليس في مراقبته وترويضه فحسب، بل في إعادة إنتاجه من جديد، وتشارك في ذلك مع الهيمنة في مراحل مختلفة من الإنتاج وفق رموز يعمل الجمهور أو الأفراد على تقليدها: "إن الجسم البشري له علاقة بالمجال السياسي؛ حيث تتحكم فيه العلاقات القائمة على السلطة بصورة مباشرة، فهي تستثمره وتراقبه وتدرجه وتعذبه وتجبره على أداء مهمات معينة، وعلى تقديم فروض الولاء والطاعة" (كيد، كارين، وهراري، ٢٠١٢، ص ٢٥٧).

لا تنفصل الرقابة عن السلطة كأداة، وهذا ما كرس له فوكو جهوداً كبيرة، ولا سيما في دروسه الأولى لما سماه "السلطة الانضباطية": "تلك السلطة التي تُمارس على الجسد بواسطة تقنيات المراقبة (البانوبتيكي - Le Panoptique)، أي ما سيصبح في نهاية المرحلة الحديثة بـ 'السلطة الحيوية'، تلك السلطة التي تُطبق على السكان وليس على الأفراد، على الحياة



يستشهد فوكو بجسد شخصية يجعلها نموذجاً للإنسان المعذب وهي (داميان) ، وسيظل هو ذاته دليل الجسد الآخر الانضباطي، حتى عندما ينتقل من مرحلة التعذيب المباشر والمعروض جماهيرياً إلى نوع التعذيب الآخر "الناعم" (وهذا مكنم التقاء الدراسة مع باومان في تحول المراقبة إلى ناعمة أو سائلة مستثمرة تقدم التقنية). هذا التعذيب الموجه إلى روح هذا الجسد، والذي يجري إخفاؤه وراء أسوار السجن المراقب جداً، فإن "الجسد القالت" (عكس الانضباطي) سيظل تاريخ مؤسساته الدليل والشاهد على مؤسسات الجسد الآخر الانضباطي (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص٣٤). فالسجن عبارة عن تقنين للزمان الذي ثبتت مراقبته ساعة بساعة، يضاف إلى ذلك أن السجن يمثل تنظيمًا وتطويعاً لحركات الجسد عن طريق المراقبة؛ لهذا السبب يعتبر فوكو المجتمعات الحالية هي مجتمعات مراقبة أكثر مما هي مجتمعات عقاب (صالح، ١٩٨٤، ص٤٧).

قدم فوكو صور عدة لجسد المحكوم عليه، يمكن اختزالها بصورتين: الجسد المعذب والمعرف به عند العوام المسمى "داميان" كما مر سابقاً، والجسد الذي تم تأديبه وإخضاعه للانضباط لسجين في زنزانته، والذي يبقى سراً تحت تهديد المراقبة المستمرة (ليشته، ٢٠٠٨، ص٢٣٧). لذلك يذهب إلى أنه من غير الممكن

ساحة ومسرح ومبيان يوضح قوتها وسطوتها كما في جسد المحكوم والمعاقب والسجين، ولكن السلطة في المرحلة الأخيرة تتحول إلى آلية انتشارية مبنوثة في كافة أرجاء الجسد الاجتماعي" (محمد، ٢٠١٥، ص١٢٦).

لعل من العقوبات التي تُمارس على السجين هو ما يسميه فوكو "الوسم": وهو فعل استحداث ندبة، أي وضع علامة على الجسد، أو باختصار أن يُفرض على هذا الجسد بخس افتراضي أو مرثي؛ فإذا لم يُصب الجسد العيني للفرد، يكون القصاص بإلحاق تدنيس رمزي باسمه، وإذلال شخصه أو النيل من منزلته. وفي جميع الأحوال، ترك أثر أو ما يشبه الأثر على الجسد المرثي أو الرمزي، المادي أو الاجتماعي، البدني أو المعنوي (فوكو، المجتمع العقابي، ٢٠٢٢، ص٣٧). بالإضافة إلى عقوبة السجن، يبقى مدلول العقوبة حاضراً في تمييز الشخص المعاقب على اختلاف الأثر، من الندبة أو الوسم الذي قد يصل إلى بتر جزء من الجسم، وهذا أقسى أنواع العقوبات ليس الجسدية فحسب بل حتى النفسية والاجتماعية. وهنا يتحول أثر العقوبة من وصفه انضباطياً غايته إصلاح الفرد، إلى تعذيب الفرد ليس إلا، أي غياب الغاية من السجن وهي الإصلاح وتغيير سلوك الأفراد أو توجيههم نحو الاعتدال.

وسائل التقنية أو وسائل الإغراء التي لم يكن التركيز عليها مفعلاً؛ لعل الظروف التي عاصرها جيريمي بنتام، والتي فكك من خلالها فوكو مشروعها، لم تكن هي ذاتها الظروف في عصر الحداثة السائلة؛ فلم يخطر ببال بنتام أن "الإغراء والإغواء مفتاحان لكفاءة البانوبيتيكون في توليد السلوك المرغوب"، فقد كان في أيامه "صندوق العقاب" لا يحتوي إلا على العصا، على العكس مما سيعمل عليه باومان في المراقبة السائلة، والتي منها "المراقبة الاستهلاكية" كما سنرى، التي تعتمد على "الإغراء لا الإكراه، ويكون هذا النوع في التخلص من السلع المعروضة، ولا سيما إذا علمنا تعاون ضحايا الاستغلال ضمن رغباتهم كما هي في ملاهي الإغراء والإغواء في الأسواق الاستهلاكية" (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ١٣٦).

**المبحث الثاني: المراقبة السائلة عند زيجمونت باومان.**

**أولاً: - فلسفة المراقبة ضمن منطق السيولة.**

المراقبة التي جاء بها باومان محاطة بفلسفته، وهي سلسلة متكاملة لا تنقطع أجزاؤها ولا يمكن فهمها منفصلة؛ من حيث تعريف المراقبة أولاً، ومن علاقاتها

الفصل بين ميلاد السجن باعتباره الشكل الرئيسي للعقاب القانوني في القرن التاسع عشر، وبين تاريخ عدد من المؤسسات -مثل الجيش والمصنع والمدرسة- وجميعها تؤكد على تأديب وانضباط الجسد من خلال تقنيات المراقبة (ليشته، ٢٠٠٨، ص ٢٣٧).

تُستعمل التكنولوجيا في الهيمنة على الجسد وذلك بمساعدة السلطة: "إن كل اقتناص للسلطة كجسد فيزيائي أو مادي يعني الهيمنة على بقية الأجساد، ويعني في الوقت ذاته وبالضرورة إنتاج الجسد والروح. إن كل تكنولوجيا سياسية هي إنتاج للأجساد الفيزيائية والأخلاقية على السواء. وتعني التكنولوجيا السياسية للأجساد تدجينها واستثمارها من أجل إنتاج المزيد من السلطة. إن السلطة ك رأس المال لا تشبع؛ فالأمر يتعلق في نهاية المطاف بخلق أجساد سياسية، أو بالأحرى مسيية وبوليسية" (صالح، ١٩٨٤، ص ٤٧). وإن دراسة الممارسات التي تقع على هذا الجسد، والتي يوقعها كذلك على أجساد آخرين، إنما هي موضوع الفلسفة عند فوكو (فوكو، المراقبة والمعاقبة "ولادة السجن"، ص ٣٤)؛ لذلك تختلف سلطة الانضباط عن أنواع السلطات الأخرى التي غايتها تملك الأجساد.

الغاية هي الوصول في المراقبة إلى أن يراقب الإنسان ذاته ويهذب سلوكه، ولكن هل هذا ممكن في ظل تطور

بعد الحديث عن "الحدائثة" و"ما بعدها" و"الحدائثة الفائقة" و"نهاية التاريخ"، فقد انقلبت الحياة الاجتماعية وتغير الوضع الجذري فيها. إن هذا الحديث يتمثل في الجهد الطويل الذي بُذل من أجل زيادة معدل سرعة الحركة حتى وصل إلى حده الطبيعي. هنا أصبح الحديث عن خروج السلطة عن حدود المكان والدولة؛ وهذا الانتقال يحدد نوع المراقبة من كونها صلبة إلى سائلة: "فالسُّلطة يمكن أن تتحرك مع سرعة الإشارة الإلكترونية، ومن ثم فإن الزمن الذي تتطلبه حركة مكوناتها الأساسية جرى اختزاله في آنيتهما ولحظيتهما" (باومان، ٢٠١٦، ص ٥٢).

فالحدائثة السائلة أكثر من مجرد نقيض للحدائثة الصلبة، وفي واقع الأمر تعكس هرم القيم الذي اتخذته الحدائثة الصلبة؛ فزيادة عمليات الإذابة/ التمييع الجنونية إلى درجة تجعل إعادة تجميد الكتلة المنصهرة الناشئة أمراً مستحيلاً، إذ جاءت لتضع في قالب مادي تُشَبِّه فيه التصور الحدائثي الصلب لنظام يستبعد البدائل كافة، بل ويلغيها (باومان، الحدائثة السائلة، ٢٠١٦، ص ٢٢). ونلاحظ ذلك التأثير في الانتقال من حالة اليقين إلى حالة اللايقين، وحالة من الخوف واللامن، وتحول حالة الثبات إلى حالة متنقلة ومتغيرة عبر الزمن.

المتعددة بالحدائثة التي تتصل بالأمن والخوف والشر، ومن كونها بالأساس تعمل وفق منطق السيولة أو الإذابة.

هل توجد علاقة بين السيولة والصلابة؟ هذا ما يمكن معرفته في حالة تطور الحدائثة؛ فحالة الحدائثة السائلة تتمثل في تغييب لحالة الصلابة وانعكاساتها المختلفة سواء كانت على مستوى الوجدان- الذهني: (اليقين). ودور القوة الدافعة الرئيسية، المتهمة بتغييب الصلابة. في عملية التحديث الذي يستمد قوته الدافعة من داخله، أي: إذابة وتهييع مجموعة كبيرة ومتنوعة من الكيانات المستقرة، أو الكيانات التي تستمد بقاءها واستمراريتها من داخلها على نحو ثابت (البُنى الاجتماعية، والروابط الإنسانية، والنماذج السلوكية، والنماذج القيمية)؛ فضلاً بما يترتب على ذلك التمييع من إضعاف لقوتها وقبضتها على النموذج الإنساني للوجود في العالم (باومان، ٢٠١٦، ص ٢٠). وهذا ما يترتب عليه الأمن وعلاقته الوجودية.

إن فكرة باومان عن الحدائثة السائلة تُوْطِر المراقبة بطرق جديدة، وتقدم رؤى ثابتة مثيرة عن أسباب تطور المراقبة بالطرق المختلفة التي تتطور بها. إن المراقبة هي أحد الأبعاد المركزية للحدائثة، ولكن الحدائثة ليست ثابتة، ولا بد أن نتساءل: عن أية حدائثة نتحدث؟

حالة العيش في هذه السيولة تشبه السير في حقل ألغام؛ فالجميع يعلم أنه ربما يحدث انفجار في أي لحظة، ولكن لا يعلم زمان ومكان الحدوث.

المراقبة جزء من فلسفة باومان في الحداثة السائلة، وعلى أساس فلسفته في السيولة جاءت نظرية "المراقبة السائلة". فالمراقبة التي جاء بها باومان متغيرة وفق حالة السيولة والمرونة التي جاءت بها الحداثة؛ فهي تستجيب لحالة السيولة التي نعيشها وتعيد إنتاجها، وتنسكب في جميع الأركان من دون وعاء ثابت، بل في وعاء ترجه الدواعي الأمنية ويفرغه التسويق الملحاح الذي تقوم به شركات التكنولوجيا.

لكن ما علاقة المراقبة بمجتمع التحكم؟ ولا سيما إذا ما قصد باومان المراقبة بالميوعة أو السيولة، وهذا ما يحدد علاقة التحكم بالعالم الافتراضي. إن علم التواصل والتحكم في الآلات (منذ الخمسينيات من القرن العشرين) قد وجد مأواه في العالم الافتراضي ورفيقته القريبة "المراقبة"؛ فلا عجب أن يرى أصحاب نظرية المراقبة الصاعدة أنفسهم في إطار مجتمعات التحكم وثقافات التحكم، فبالرغم من تميز الأخير بالميوعة، على العكس من العمل في الفضاءات الثابتة للبانوبتيكون وحظائره المسيجة (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ١٣٤).

بدأت عملية الإذابة -وهنا تكمن المفارقة- تحت راية الكفاح من أجل الوصول إلى الصلابة وترسيخها: كفاح ضد تفكيك الروابط الإنسانية والمنظومات الاجتماعية وتقطيعها، كفاح ضد تفكيك النظم وما يتبعه بالضرورة من فقدان الأمن الوجودي. في أثناء ذلك الكفاح، حُددت البنى المتوارثة من أجل إذابتها وصهرها، لا لأن الروح الحديثة تكره الصلابة في حد ذاتها، بل لأن هذه البنى لم تكن صلبة بما فيه الكفاية (باومان، ٢٠١٦، ص ٢١).

الحداثة السائلة هي إذابة متواصلة وتفكيك مستمر للمراكز الصلبة كافة لصالح "اللعبة الحر"؛ فلا تحتاج الحداثة السائلة إلى حراس، ولا أهل تخطيط وتنظيم وإنتاج، بل ترحب بمن يسميهم باومان "أهل الصيد"، وهم أهل السوق والاستهلاك واللذة والجنس والجسد، يبحث كل منهم عن فرائس جديدة كل يوم، لكنهم يعيشون في حالة شبه دائمة من اللابيين، وينتابهم قلق شبه مزمّن من الاستعباد من سياق الصيد (باومان، ٢٠١٧، ص ٨). فتتولد حالة من اللابيين تجمع بين الإحساس بالجهل (استحالة معرفة ما سيحدث)، والإحساس بالخوف الذي ينبث في النفوس من دون أن تستطيع إدراكه ولا تحديده ولا وصفه (باومان، ٢٠١٦، ص ٣٣). فعاملا اللابيين والخوف من أبرز معالم السيولة في الحداثة، وانتقالاً إلى المراقبة، فإن

الأصدقاء، وهي أجهزة رصد وتحليل لكل ما يخصك من تفاصيل تدخلها بعفوية عند التسجيل لخدمة أو موقع إلكتروني، لتتراكم هذه المعلومات ويتم تبادلها بين جهات السيادة ومؤسسات التسويق لتتحدث عنك بدلاً من أن تتحدث أنت عن نفسك، فهي منظومة متابعة وتعقب وتتبع وفرز وفحص ورصد ممنهج (باومان وليون، ٢٠١٧، ص ١٢).

إن تطور التقنية قد انعكس على المراقبة كذلك، لكن نجد هذا حتى مع الجسد الذي أشار إليه فوكو من خلال السجن، وهذا ما يتعلق بواقع المراقبة مزامنة مع العالم الافتراضي. وفي هذا يتحول الجسد من كونه محيطاً بالمعلومات إلى العكس تماماً؛ فالأخيرة (المعلومات) هي التي تحيط بالجسد وتبين هويته، ولا يمكنه العبور أو التنقل بين الدول إلا من خلال هذه المعلومات: "فالأجساد تتحول إلى (صيف معلوماتية)، وتختزل إلى مجرد بيانات، وربما يتضح ذلك على أكمل وجه في استخدام البصمات والإحصاءات الحيوية على الحدود. ولكن في هذه الحالة النماذجية

(Paradigmatic)، تتمثل الغاية في التحقق من هوية جسد الشخص حتى يمكن السماح له بعبور الحدود (أو عدم السماح له بعبورها)؛ فالمعلومات الخاصة بالجسد تعامل كما لو أنها حاسمة في تحديد هوية الشخص. وإذا كان الأمر كذلك، فثمة قلق بشأن

المراقبة السائلة ليست طريقة كاملة لتحديد أبعاد المراقبة، إنما هي أقرب إلى "توجه" وطريقة لتحديد مستجدات المراقبة في الحداثة المائعة (السائلة)؛ وهذا ما يحدد مجالات المراقبة السائلة، وكذلك العلاقة مع فلسفة الحداثة التي هي جزء منها. فالمراقبة تلين على وجه الخصوص في العالم الاستهلاكي، وترخي الحبال القديمة، وتوظف بسهولة بيانات شخصية منتزعة لغرض ما في أهداف أخرى.

### ثانياً: - المراقبة والتقنية.

في المراقبة والتقنية، لكل منهما طبيعته الخاصة، على أن تأثيرهما مشترك على المجال الاجتماعي من جانب، والمجال السياسي وتحقيق الأمن والحفاظ على معلومات الأفراد من جانب آخر؛ فقد تؤدي وسائل هذه التقنية إخفاً في حماية الأفراد، وهذا كذلك متعلق بماهية المراقبة كمدلول مختلف عند باومان الذي يجمع بين هذين الحقلين. إن تعريفه للمراقبة يضيف ترابطاً لا يمكن الفصل فيه بين المراقبة والتقنية، إذ يُعرف "المراقبة السائلة" بأنها: ليست مجرد آلة رصد، أو كاميرا في ركن المتجر، أو أمام بناية سكنية؛ إنها التطبيق الذي تستخدمه للبحث عن طريقك فيدل جهات أخرى على مسارك وحركتك، وعين صغيرة مثبتة على جهاز "اللاب توب" تسجل محادثاتك مع

الخاصة وحقوق المواطنين (مانتار، ٢٠١٣، ص ٣١)، حتى وإن كانت هذه الإجراءات التي تعمل بها الدولة بالصد من الحريات، ليس فقط بالسجن، بل كذلك على مستوى العالم الرقمي أو الافتراضي.

قد تكون المراقبة انتهاكاً للحرية الشخصية وتحديداً الخصوصية، ولا سيما عند السجناء: "إن الخصوصية تتطلب مأوى أو ملاذاً مثل الغرف الخاصة، والحدائق المغلقة، والخلاوات، وأسوار الاحتراس ضد المتطفلين، وعلامات الأماكن للاستعمال الشخصي، والحماية الفعالة من التعدي. والوصول إلى مثل هذه الفضاءات هو دائماً أمر أو موضوع للتمييز والرفاهية؛ فالأثرياء وحدهم والأقوياء يفترضون أن خيار الخصوصية متاح بشكل دائم كأمر واقعي، أما بالنسبة إلى سائر الأفراد فالخصوصية -حتى وإن كانت قضية قابلة للتطبيق- فهي هدف إشكالي صعب يحتاج إلى جهد كبير وتضحية" (باومان، الحرية، ٢٠١٢، ص ٨٩).

أما على المستوى الرقمي الذي يحدد شكل المراقبة المعاصرة، التي بدورها تعتمد بشدة على قواعد البيانات القابلة للبحث فيها والمرتبطة بالشبكة، فإن نظاماً يعتمد "الأوتوماتيكية" مخول بأداء مهمة تصنيف السكان وتمييز الأهل من الغرباء، وبالتالي تحديد المستويات وفق سلم "الأكثر خطورة" وضمن قاعدة بيانات تجيز

كفاية بصمات الأصابع أو قزحية العين (Iris scan) وتجاهل وحدة الجسم وسلامته" (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ١٣٥).

فالجسد لم يختلف تأثيره بوصفه محل تركيز المراقبة، بل تطور، وهذا ما يختلف فيه باومان عن فوكو بسبب تطور التكنولوجيا، ولا سيما فيما يعرف بـ (التكنولوجيات البيومترية)؛ وهي وسيلة للقياس تركز على الصفات الفيزيائية أو الفسيولوجية، أو على الجسد بوصفه محددًا فريداً لهوية الأفراد والتحقق منها. ومع تحول الجسد إلى "كلمة سر"، تتحول شبكية العين أو قزحيتها، أو حتى زاوية الأنف -من خلال خوارزميات- إلى ترميز ثنائي بغرض التحقق من الهوية أو تحديدها (مارك ب. سالتر، ٢٠٢١، ص ١٦٣). كما أن مشكلة الهوية والانتقال بين البلدان رصدت لها الدول الكثير من الجهود والأموال لتعزيز الأمن.

إذ كان الهدف من مشروع قياس أجزاء الإنسان وبصمات الأصابع إيجاد بصمة جسدية لا يمكن تزويرها، وكان الهدف منع الاحتيال، كأن ينتحل ذوو السوابق هوية أخرى، ليس هذا فحسب بل بهدف التثبيت من الهوية الشخصية بشكل أكيد؛ حتى إن بعض الدول -ولا سيما الأنظمة الديمقراطية- رفضت تعميم المطابقة "البيومترية" خوفاً من التعدي على الحياة

الجمعي المؤثرة)، باعتباره أثراً جانبياً للخفة والميوعة الجديدة لسلطة تتسم بسرعة متزايدة من الزوال والتحول والتملص والحركة، ويمكن القول: من الهروب أو السرعة في الهروب. إن التفكك الاجتماعي شرط لهذا الأسلوب الجديد للسلطة بقدر ما هو نتيجة؛ فهو يتخذ من "فك الارتباط" وفن الهروب أدوات أساسية له، وهذا فضاء السلطة والمراقبة معاً. فالسلطة في ظل السيولة تتمتع بحرية التدفق والجريان، ولا بد من أن يخلو العالم من السياجات والموانع والحدود الحصينة ونقاط التفتيش المنيعة؛ فالشبكات الاجتماعية المتينة تشكل عائقاً في طريق السلطة، ولا سيما القوى العالمية العازمة على تفكيك مثل هذه التجمعات أو التنظيمات في السبيل إلى الميوعة المستمرة المتنامية (باومان، ٢٠١٦، ص ٥٦).

إن سرعة هذه الشبكات والروابط الإنسانية وسرعة تفتتها وزوالها وانكسارها وتعليقها إلى شعار آخر، هي ما تسمح لهذه القوى أن تفعل ما تفعل. واقع الأمر أن السلطة صارت تتجاوز حدود البلد الذي يقيم فيه المرء... إذ يمثل اختراع الهواتف المحمولة (ضربة قاضية) رمزية للتحويل على المكان؛ إذ إن توافر تجويف كهربائية يستمد الهاتف منها الكهرباء ليس ضرورياً لأمر يُعطى ويُنفذ، فلم يعد موضع "صاحب الأمر" مهماً، والاختلاف بين قريب وبعيد، أو بين البرية والمكان الذي يسوده التحضر والنظام، قد ألغى تقريباً

مراقبة استباقية تعتمد بطاقات الهوية الشخصية؛ وإن كان ذلك على المستوى البعيد، مما يساهم في رصد الخطورة في الجانب الأمني والحد من مخاطر الإرهاب (مارك ب. سالتر، ٢٠٢١، ص ١٤٥).

مما يطرح فكرة المكان المحظور (Ban-

Opticon) لتوضيح استخدام تكنولوجيات الصفحات والملفات الشخصية لتحديد موضوع المراقبة. ولكن ذلك يظهر من خلال تحليل نظري كامل لحالة (الأمن/ انعدام الأمن المعولم) الصادر عن أنشطة عالية التنسيق يقوم بها مديرو الخوف والقلق الدوليون، مثل شرطة الحدود وشركات الطيران؛ لأن البيروقراطيات السياسية والاقتصادية المتجاوزة للأقطار في مجال المراقبة والتحكم، تهدف لرصد حركة الناس والتحكم فيها من خلال المراقبة (باومان، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ٧٦).

إن إحدى المشكلات الأساسية في المراقبة المعاصرة هي تركيزها الضيق على التحكم، الذي يستبعد بسرعة أي اهتمام بفكرة "الرعاية". فإذا كانت التكنولوجيات الإلكترونية غالباً ما تخدم تضخيم بعض أكثر الجوانب جدلاً للمراقبة البيروقراطية (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ٥٦)؛ فالمراقبة السائلة هنا تسهم في تفكيك الشبكات الاجتماعية، أي (تداعي قوة الفعل



انتقلت الحادثة في طورها الجاري (السائل) إلى "خصخصة الخوف"، ليصبح الأمان مهمة الفرد؛ وبدلاً من رعاية الدولة ظهر السوق ليقدم خدمات الأمن، والأبواب الآمنة، والسيارات المصفحة، والأسوار العالية، وكاميرات المراقبة. ومن لا يملك تكلفة ذلك كله، كان عليه أن يتعلم كيف يدافع عن نفسه بطرائق أقل تعقيداً، وربما أكثر وحشية (باومان، الخوف السائل، ٢٠١٧، ص ١١-١٢). ويميز باومان حالة الخوف -أو الخوف من الخوف- في مجتمع ما قبل التقنية أو التواصل الإلكتروني؛ فقد تكون حالة الخوف حالة يومية في هذا المجتمع، إلا أن المجتمعات التي اعتادت على الأمان قد يصيبها "إدمان الأمان" حاله حال المخدرات، فهي أضعف من تلك المجتمعات التي تواجه الصعوبات والتحديات (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ١٢٣). وقد أمعن باومان في وصف حالة الأمان التي هي حالة طبيعية للعيش، على العكس من حال "المدمنين" التي تعد حالة عارضة في حياة المجتمعات.

فالمستقبل المتخيل للأمن هو استبعاد لكل حالات الشذوذ من (إرهاب، مرض، خوف) أو على الأقل احتواؤها؛ ذلك لأن المراقبة ترتبط بالانضباط والأمن كما أسسنا ذلك مع فوكو. فالسيولة تنعكس في الخوف (الخوف السائل) التي تعني أنه لا يمكن الشعور بالأمن

استطاعت الحادثة الخروج من مأزق الفشل في تحقيق وعودها؟ وهذا ما يبين حالة الانتقال من الحادثة الصلبة إلى الحادثة السائلة. ولعل الأسئلة تتطور وتتعمق بتعدد حالات الخوف في طلب الأمن تارة، وبين حالات الإغراء التي يفصح فيها الإنسان عن رغبته في تقديم معلوماته بالمجان لإثراء السوق والمتعة وإشباع الرغبات تارة أخرى، ولا سيما في العالم الافتراضي.

كيف استطاعت الحادثة السائلة توزيع المخاوف الكبرى على تفاصيل الحياة اليومية، وإشعار الفرد أن مواجهة التهديدات هي مهمته هو، وأن توفير الأمن لم يعد من واجبات الدولة بل أصبح مسؤولية الأفراد؟ وكيف أدارت فشلها لصالحها، بل وحققت أدواتها الاقتصادية المكاسب من هذا الوضع؛ بدءاً من صناعة أجهزة المراقبة والحراسة، وصولاً إلى صناعة السلاح وتجارة الحروب الأهلية؟

رصد باومان كتابه (الخوف السائل) للإجابة عن هذه الإشكاليات؛ إذ يشير إلى تلك العمليات من التحول، أي تحويل وتجريد الأفراد -عبر أدوات الحادثة- من كل شبكات التضامن ومهارات مواجهة الخوف والمخاطر كافة، وذلك بعد "تأميم الخوف" في ظل النظم الاشتراكية التي وعدت بتأمين خدمات التوظيف والصحة والتعليم والسلامة.

الكيان السياسي في أكثر صورهِ شيوعاً (الأمة/ الدولة) صارت في موقفٍ عصيب، وثمة حاجة إلى شرعية بديلة" (زيجمونت، ٢٠١٧، ص٣٧-٣٨).

وهنا ينقلب دور المراقبة من سلطة الدولة إلى سلطة الأفراد. وهنا يمكن التمييز بين طريقتين يمارس بهما المواطنون السيطرة أو الانضباط على القوى التي تهيم عليهم، وتسمى على التوالي: الخروج (Exit)، والصوت (Voice). والاختلاف بينهما يطبق على التفاعل بين المستهلكين والموردين لسع الأبتياح بالجملة والقطاعي وكذلك الخدمات؛ وهنا تهتم الدولة بدور المخالف أكثر من دور المؤيد، لأنهم يمارسون ضغطاً على الحكومة من خلال الاستهلاك (باومان، الحرية، ٢٠١٢، ص١٣٣). أو يتغير نوع الإنتاج وشكله بسبب تطور الآلة، وهذا ما يؤثر كذلك في تحديد المراقبة السائلة، ولا سيما إذا ما اقترنت مع الرأسمالية: "فإذا كانت الرقابة الرأسمالية تستخدم في السابق بعض الاستراتيجيات التي تناسب تلك الفترة الزمنية والأدوات المستخدمة" (زوبوف، ٢٠٢٠، ص٢)، فإن تطور الآلة أثر سلباً في تطور المراقبة واللعب بالبيانات والمعلومات الشخصية للمستهلكين، إذ هنالك برامج استشعار وظيفتها تحديد ما يرغب الإنسان في البحث عنه لمجرد التفكير به.

طوال الوقت. وفي الحداثة السائلة اختلف كذلك تعريف الأمن؛ إذ انتقل من مجال الثقة بالنفس والطمأنينة إلى ساحة "السلامة" -أي الحماية من التهديدات التي تمس الفرد وممتلكاته- (باومان، الخوف السائل، ٢٠١٧، ص٢٠).

ويمكن تصنيف الأخطار التي يخشاها المرء (والمخاوف المشتقة التي تثيرها) إلى ثلاث فئات: فئة تهدد الجسد والممتلكات؛ وفئة ذات طبيعة أعم تهدد دوام النظام الاجتماعي والثقة به؛ وفئة تهدد موقع المرء من العالم، أي مكانته وهويته الاجتماعية سواء على مستوى الطبقة، أو النوع، أو العرق، أو الدين (باومان، الخوف السائل، ٢٠١٧، ص٢٦).

إن انسحاب الدولة من مهمتها في الحماية يفقدها الشرعية، أو لنقل يعطي معنى جديداً للشرعية يتفق مع فلسفة باومان في السيولة: "إن انسحاب الدولة من المهمة التي استمدت منها شرعيتها في القرن العشرين يثير من جديد قضية الشرعية؛ فلا يمكن في هذا الزمن بناء إجماع جديد للمأطنة (الوطنية الدستورية) بالمعنى الذي حدده يورغن هابرماس بالطريقة التي اعتاد أن يُبنى بها منذ عهد قريب، أي عبر ضمان الحماية الاجتماعية، وتقويض حقوق الاحترام الاجتماعي والحماية الشخصية؛ فسلامة

## رابعاً: - المراقبة والأخلاق

أثر هذا التحول القيمي على المنظومة الأخلاقية بصورة عامة؛ فبعد أن بدأ دور الأب أو الأخ الكبير يتبدد، أصبح نظام الأسرة أكثر مرونة وأكثر ضعفاً، بسبب عولة الاستهلاك وتحول الأفراد إلى أدوات تُحرَّك عن بُعد.

## -الخاتمة-

تتميز هذه الدراسة بالجمع بين شخصيتين قد تبدوان متباعدتين في المنهج والزمان، إلا أنهما يتفقان في العديد من الجزئيات؛ فكل منهما أولى للمراقبة نظرة خاصة، وبالتالي للفلسفة دور في نقد وتفكيك "الثبات" الذي يحول الإنسان إلى آلة أو مادة. فكل عمليات التنميط والقولبة لم تنجح تماماً في إنتاج "إنسان مطيع"، وإن كان هذا هدف السلطة في تطويع الأفراد وتحويلهم إلى جماهير خاضعة، إذ يخرج الوعي بازغاً مع كل هذه المحاولات التي قد تصل إلى سنوات طوال من الهيمنة، ثم تتفكك وتنحل مع ضغوط العوامل والظروف المتغيرة. وهذا ما كان مع فوكو، أما باومان فقد انطلق في سلسلة "السيولة" التي تحولت فيها الفلسفة من الصلابة والمركزيات والكليات إلى الجزئيات، وإلى السيولة والمرونة حسب حالة التنقل في الحداثة؛ فلم يعد شيء ثابتاً بل أصبح سائلاً مائعاً، حتى اليقين انتقل إلى اللايقين.

أهم نتائج الدراسة:

تنفصل الأخلاق عن المراقبة، وبالتحديد ما جاء به باومان في "أخلاقيات ما بعد الحداثة" التي طغت عليها العولة. وكما مر سابقاً في العلاقة بين الأخلاق والتكنولوجيا، سنجد الحاجة والمنفعة والانفعال حاضرة في سمات هذه الأخلاق. ولكن؛ هل بقيت الأخلاق في زمن العولة أو الحداثة ضمن النظريات الكلاسيكية، أم اختلفت في زمن العالم الافتراضي والتواصل الاجتماعي؟ هل تعززت الأنانية والمصلحة على حساب التعاطف، أم انتقل الإنسان إلى نمط "استهلاكي انفعالي" حسب تعاملاته اليومية، ولا سيما الافتراضية منها؟

ترتبط المراقبة بالأخلاق نظرية وتطبيقاً؛ بل إن من واجبات المراقبة تشخيص السلوك المنحرف ومعالجته، وهذا متعلق بتحديد ضوابط المراقبة والقضايا التي تواجهها، ويمكن تحديدها في قضيتين: الأولى ما يسميه باومان بـ "تحييد الأخلاق" وفصلها عن الفعل؛ إذ تنفصل النظم والعمليات عن أية اعتبارات أخلاقية، فعبارة "لسنا القسم المختص" هي الاستجابة البيروقراطية الأساسية للاستفسارات عن سلامة تقييم رسمي. وأما الثانية فهي أن المراقبة تحقق انسيابية "الفعل عن بُعد"، وفصل الفاعل عن عواقب فعله (باومان وليون، المراقبة السائلة، ٢٠١٧، ص ٣١). مما

المراقبة؛ فإذا كان فوكو قد فكك الخطاب السلطوي المتوجه للجسد لإعادة تدجينه، فإن باومان يذهب إلى إعادة إنتاجه وفق وسائل التواصل والعالم الافتراضي، مستعيناً بكشف بيانات الفرد التي تراقب حركة الجسد وبؤبؤ العين والبصمات والحمض النووي.

٤. خصخصة الأمن: تحول الأمن من "وظيفة سيادية للدولة" إلى "وظيفة فردية"؛ سواء من خلال الشركات الأمنية الخاصة، أو عبر منتجات التقنية المتنوعة، من الأبواب الحصينة إلى كاميرات المراقبة الموصولة بالشبكة.

#### المصادر

- أرمان ماتلار. (٢٠١٣). *المراقبة الشاملة - أصل النظام الأمني* (المجلد الأول). بيروت، لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
- - الزاوي بغورة. (٢٠٢١). المرض بوصفه تجربة خطاباً: بحث في سياسات المرض عند ميشيل فوكو ودورها على الفلسفة الاجتماعية المعاصرة. تبين، الصفحات ١٣-٣٩.
- إف، سننومير. (٢٠٢٣). *الديمقراطية المستحيلة (السياسة والحدثة عند فيبر*

١. اختلاف طبيعة القوة: يتغير نوع المراقبة وفقاً لحالة الثبات التي انتقلت من "الذويان" للكتل الصلبة إلى "المرونة المتغيرة"؛ فالقوة ليست في الثبات بل في التحرك السريع وفق المتطلبات، وهذا ما يتجلى في العالم الرقمي. فالقوة هنا تكمن في "السيولة" كما يسميها باومان؛ فكلما كان الوصول سريعاً عبر شبكات الإنترنت وتطبيقات التقنية كانت المراقبة أعقد، مما يجعل الثبات ضعفاً والحركة قوة.

٢. تحول أخلاقيات المراقبة: انتقلت المراقبة من صفة الفرض والإلزام أو الإكراه (أخلاق الواجب والطاعة) إلى "أخلاقيات المنفعة والاستهلاك والرضا الفوري". وهنا تظهر رغبة الإنسان في مراقبة كل ما حوله، بل وانتهاك خصوصيته بإرادته عبر إرسال ملفاته الخاصة، وهنا يتم استعمال أسلوب "الإغراء" من الأفراد و"الجدب" من الشركات.

٣. تنميط الأفراد وقولبتهم: عملت السلطة على إعادة صياغة الأفراد؛ سواء مع فوكو عبر تفكيك السجن ومؤسسات الدولة، أو مع باومان عبر الخوارزميات. ويلعب الجسد دوراً رئيسياً بصفته المحطة التي تنتقل فيها فلسفة

- وهيرماس) (المجلد الاولي). (جورج كتوره، المترجمون) الطعائين، قطر: المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات .
- إيليا زريق مارك ب. سالتر. (٢٠٢١). المراقبة وحفظ الأمن على الصعيد العالمي (الحدود والأمن والهوية) (المجلد الاولي). عماد شيحة. مراجعة: تجوى نصر، المترجمون) قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
  - باومان، زيجمونت. (٢٠١٧). الأزمنة السائلة (العيش في زمن اللاتيقين) (المجلد الاولي). (حجاج أبو جبر . تقديم: هبة رؤوف عزت، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
  - باومان، زيجمونت. (٢٠١٦). الحداثة السائلة (المجلد الاولي). (حجاج أبو جبر. تقديم: هبة رؤوف عزت، المترجمون) بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
  - باومان، زيجمونت. (٢٠١٢). الحرية (المجلد الاولي). (فريال حسن خليفة. مراجعة: محمد سيد حسن، المترجمون) القاهرة : مكتبة مدبولي.
  - زيجمونت باومان. (٢٠١٧). الخوف السائل (المجلد الاولي). (حجاج أبو جبر. تقديم: جون ليشته. (٢٠٠٨). حمسون مفكراً أساسياً معاصراً) من البنيوية إلى ما بعد الحداثة
- (المجلد الاولي). (فاتن البستاني. مراجعة : محمد بدوي، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية- منظمة العربية للترجمة.
- حيدر ناظم محمد. (٢٠١٥). إشكالية الفلسفة- من النقد الأركيولوجي إلى الإبداع الفلسفي (المجلد الاولي). بيروت، لبنان : ابن النديم للنشر والتوزيع ، دار الروافد الثقافية- ناشرون.
  - زيجمونت باومان. (٢٠١٦). الحبّ السائل- عن هشاشة الروابط الإنسانية (المجلد الاولي). (حجاج أبو جبر. تقديم: هبة رؤوف عزت، المترجمون) بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
  - زيجمونت باومان. (٢٠١٢). الحرية (المجلد الاولي). (فريال حسن خليفة. مراجعة: محمد سيد حسن، المترجمون) القاهرة : مكتبة مدبولي.
  - زيجمونت باومان. (٢٠١٧). الخوف السائل (المجلد الاولي). (حجاج أبو جبر. تقديم:

- هبة رءوف عزت، المترجمون) بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- زيجمونت باومان، و ديفيد ليون. (٢٠١٧). *المراقبة السائلة*. (حجاج أبو جبر. تقديم هلة رءوف عزت، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- زيجمونت باومان، و ديفيد ليون. (٢٠١٧). *المراقبة السائلة*. (حجاج أبو جبر. تقديم هلة رءوف عزت، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- شوشانا زوبوف. (١ يناير، ٢٠٢٠). عصر الرقابة الراسمالية. *مراجعات*.
- طوني بينيت- لورانس غروسبيرغ- ميغان موريس. (٢٠١٠). *مفاتيح اصطلاحية جديدة* \_ معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع (المجلد الاولي). (سعيد الغانمي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة- مركز دراسات الوحدة العربية.
- عبد السلام حيمر. (٢٠٠٨). *في سوسيولوجيا الخطاب - من سوسيولوجيا التمثلات إلى سوسيولوجيا الفعل* (المجلد الاولي). بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- ميشيال دو سارتو. (٢٠١١). *ابتكار الحياة اليومية- فنون الآداء العملي* (المجلد الاولي). (محمد شوقي الزين، المترجمون) الجزائر، الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف.
- ميشيل فوكو. (١٩٩٠). *المراقبة والمعاقبة (ولادة السجن)*. (د. علي مقلد. مراجعة وتقديم. مطاع صفدي، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز الانماء القومي.
- ميشيل فوكو. (٢٠٠٣). *يجب الدفاع عن المجتمع* (المجلد الاولي). (د- الواوي بغوره، المترجمون) بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ميشيل فوكو. (٢٠٢٢). *المجتمع العقابي - دروس أُلغيت في الكوليج دو فرانس (١٩٧٢-١٩٧٣)* (المجلد الاولي). (نصير مرؤة، المترجمون) بيروت، لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

- هاشم صالح. (١ يوليو، ١٩٨٤). فيلسوف القاعة الثامنة. *مجلة الكامل* (العدد ١٣).
  - وورين كيد، لج كارين، و فيليب هراري. (٢٠١٢). *السياسة والسلطة* (المجلد الأول). أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.
  - جيل دولوز ، هومش على مجتمعات السيطرة ١٦ يونيو ٢٠١٥، ترجمة : يحيى محمد
- <https://libcom.org/library/postscript-on-the-societies-of-control-gilles-deleuze>